أهمية موارد جبل صبر المائية لمدينة تعز خلال العهد العثماني الأول: دراسة تاريخية ميدانية

د. طلال حمود عبده بن عبده المخلافي
أستاذ تاريخ الدولة العثمانية واليمن الحديث
المساعد بقسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة تعز

ملخص:

تتمحور الإشكالية الرئيسة لهذا البحث حول اكتناز جبل صبر كميات وفيرة من موارد المياه العذبة ذات الجريان الدائم طوال العام، ومن مياه الأمطار التي تسقط عليه خاصةً في فصل الصيف، مشكلةً وفرة مائية(سيول) متدفقة صوب مدينة تعز وأجزائها الملتصقة بالجبل، ما جعل لتلك الموارد مكانة مهمة في سياسات السلطات الحاكمة للمدينة إبان العهد العثماني الأول في اليمن(923-1045هـ/1517-1635م)، والتي أولت المسألة المائية اهتماماً خاصاً، يرتكز على مبدأ التكيف مع المجال، ومحاكاة خصائصه الطبيعية، والتغلب على إكراهاته المرتبطة بالسمات الموضعية والموقعية للجبل والمدينة – المتسمة بندرة مائية وكثافة مجتمعية – على نحو يلبي احتياجات السكان المائية والسلطات العثمانية الحاكمة، ويقي المدينة مخاطر وكوارث السيول، عبر موروث حضاري يشمل عدداً من تقنيات تدبير وتهيئة الموارد المائية.

ويهدف هذا البحث إلى تسليط الضوء على الموارد المائية لجبل صبر وبالذات المياه العذبة، فضلاً عن مياه الأمطار، ومن ثم إبراز أهميتها ومكانتها بالنسبة لمدينة تعز خلال العهد العثماني الأول والتعرف على التقنيات(التقليدية) التي استخدمها العثمانيون لتدبير وتهيئة تلك الموارد المائية، والاستفادة منها أثناء استقرارهم في تعز، وكذا مجالات استخدام تلك المياه والحروب التي نشبت بسببها آنذاك.

ويكتسب هذا البحث أهميته من أهمية الموضوع نفسه؛ الذي يزاوج بين البعد التاريخي من جهة وواقع حال تلك الموارد من جهةٍ ثانية، لاسيما في ظل ندرة الأبحاث المونوغرافية حول موضوع مياه جبل صبر وتقنيات تدبيرها خلال العهد العثماني الأول.

ومن خلال المعطيات المصدرية والميدانية، واستناداً إلى المنهج التاريخي الوصفي، والمنهج التحليلي، سوف نناقش هذا الموضوع بتصنيفه إلى ثلاثة محاور: الأول، يتناول المجال الجغرافي لجبل صبر ومصادر موارده المائية المطرية والعذبة، والثاني، خصصناه للمجال الجغرافي لمدينة تعز وآليات العثمانيين في تدبير مياه جبل صبر، أما الثالث، فتحدثنا فيه عن حرب المياه في العهد العثماني الأول.

وفي ختام البحث تبين أن العثمانيين أولوا المسألة المائية عناية كبيرة أنهت معاناة سكان مدينة تعز من شح المياه إثر سيطرتهم عليها، من خلال استخدامهم لعدد من التقنيات التقليدية لتدبير وتهيأت مياه جبل صبر، وأبرزها إنشاء السواقي والجسور أو المراقي والبرك والسدود، بما يتوازى مع أهمية تلك المياه ومجالات استخداماتها المتعددة في الشرب والمنازل والطهارة والوضوء والري، كما اتضح أن العثمانيين وفروا الاستمرارية لتدفق مياه صبر إلى

المدينة، من خلال ضمان موارد مالية كافية لتلك التقنيات بتخصيص أوقاف لها وتعيين مشرفين عليها، وأن المياه استخدمت في الصراعات العسكرية كوسيلة ضغط قوية بين القوى المتنافسة آنذاك.

مقدمة:

احتلت موارد جبل صبر المائية أهمية كبيرة بالنسبة لمدينة تعز خلال العهد العثماني الأول في اليمن(923-1045هـ/1517-1635م)، وتجسدت هذه الأهمية بشكل أساس في مجالات الاستخدام المتعددة لتلك الموارد المائية، والتي توزعت بين الشرب والاستخدام المنزلي والطهارة والوضوء وري المزروعات وسقي المواشي، وقد أدرك العثمانيون تلك الأهمية بعد نجاحهم في السيطرة على مدينة تعز التي تنتمي في الأساس إلى المناطق شبه الجافة[1]، الأمر الذي دفعهم إلى مضاعفة الجهود وبذل الأموال بغية مواجهة شحة المياه التي كانت تعاني منها المدينة آنذاك، من خلال التركيز على التقنيات(التقليدية) لتدبير وتهيئة مياه جبل صبر الوفيرة لفائدة مدينة تعز، وفي مقدمتها السواقي، والبرك، والسدود، والمراقي أو الجسور الخاصة بتهيئة مياه سيول الأمطار، كما واجه العثمانيون عسكرياً أية محاولة من قبل بعض القوى اليمنية لقطع مياه جبل صبر عن المدينة، والنأي بالمسألة المائية عن التجاذبات والصراعات السياسية والحربية آنذاك.

ولكي تتضح أبعاد الموضوع وملامحه الرئيسة التي تتسم بالترابط والتداخل، سوف نقوم بتصنيفه إلى ثلاثة محاور، كما يأتي.

أولاً. جبل صبر، المجال ومصادر المياه:

يشتهر جبل صبر بكثرة الأوصاف والتسميات؛ فهو ملك الجبال الجنوبية في اليمن بمنزلة الطور في الشام عند الهمداني[2]، وسلطان جبال اليمن حسب ابن المجاور[3]، وأفضلها لدى ابن الديبع[4]، وصفه القائد العثماني سلمان ريس بالعظيم والكبير، وشبهه بجبل مدينة بورصة التركية[5]، وعده المفكر الجزائري الفضيل الورتلاني بأنه أفخم وأضخم من جبل لبنان[6]، وفضلاً عن ذلك فقد كان محل إعجاب وانبهار عدد من الرحالة والكتاب القدماء والمحدثين، من مؤرخين وجغرافيين أجانب وعرب ويمنيين على السواء[7] وما يهمنا هنا هو التركيز على المجال الجغرافي للجبل وموارد مياهه، على النحو الآتي:

1. المجال:

يندرج جبل صبر ضمن سلسلة المرتفعات الوسطى والجنوبية لليمن، ويقع في وسط محافظة تعز في الجهة الجنوبية منها، يمتد فلكياً بين دائرتي عرض(13,25- 13,37) شمالاً وبين خطي طول(44,06-43,55)، يحده من الشمال مدينة تعز، ومن الجنوب مديرية المعافر، ومن الشرق مديرية خدير، ومن الغرب مديرية جبل حبشي[8]، تبلغ مساحته(30740)هكتار من إجمالي مساحة محافظة تعز البالغة (1002100)هكتار، ويتكون من ثلاث مديريات هي: صبر الموادم، المسراخ، مشرعة وحدنان، من أصل(23) مديرية تتكون منها محافظة تعز[9]، بينما يصل ارتفاعه إلى (3015م) فوق مستوى سطح البحر، ويشرف على المناطق الجنوبية من أعلى قمة فيه وهي جبل العروس، ولعل هذا ما دفع الهمداني إلى وصفه بملك الجبال الجنوبية لليمن[10].

ويعد جبل صبر مظهراً تضاريسياً مهماً في مدينة تعز، وقد تم تقسيمه إلى ثلاث نطاقات طبيعية تبعاً لعاملي الارتفاع ودرجة الانحدار، وهي: النطاق الأعلى الذي يشمل المناطق الواقعة على ارتفاع(3015-1500م)، ويتسم بشدة الانحدار والجريان السطحي والتضرس، ويتمثل هذا النطاق في عزلة العارضة، وعزلة المعقاب، وعزلة النجادة- صبر الموادم ومديرية مشرعة وحدنان من جهة الشمال، ومن الجنوب عزلة الأقروض ووتير من المسراخ، يليه النطاق الأوسط الذي يشمل المناطق الواقعة على ارتفاع(2500-1500م)، حيث تخف شدة الانحدار وقوة الجريان، ويتمثل هذا النطاق في عزلة الجرن وسيعة والموادم، وكذا الأودية المرتفعة في عزل مديرية المسراخ مثل حصبان أعلى خريشة، والجزء الغربي من عزلة تباشعة، بينما يشمل النطاق الأسفل من الجبل، المناطق الواقعة على ارتفاع أقل من (1500م) فوق مستوى سطح البحر، ويتسم بالاستواء وقلة الانحدار، وتمثله مناطق الأودية مثل: الضباب، وبرداد-صبر الموادم، ووادي عرش، ومسفر، وطالوق- المسراخ في الغرب وأودية عبدان، ومرعيت، وتباشعة، والحازة في الشرق، أما الجهتين الشمالية والجنوبية فتغطيهما كتلة جبل صبر[11].

وفي هذا الصدد، يتكون جبل صبر من كتل صخرية متنوعة ذات أعمار مختلفة، أغلبها صخور نارية بركانية ترجع إلى الزمن الثالث بدرجة رئيسة، وتحتوي الصخور البركانية على طبقات ذات مخزونات مائية جوفية، خاصةً في الأماكن التي يكثر بها التصدع والتشقق والتي تظهر على شكل عيون أو غيول، فقد أشارت الدراسات الجيولوجية أن منطقة جبل صبر تعرضت إلى تكون عدة أنواع من الفوالق والقواطع الرئيسية أدت إلى تقسيم صخور المنطقة إلى عدة كتل، ومن ثم الإسهام بدور مهم في عملية تسرب المياه الجارية أو مياه الأمطار إلى الصخور تحت السطحية وتغذية المياه الجوفية، التي تخرج بعد ذلك في هيئة عيون أو غيول[12].

2. الموارد المائية:

تتنوع الموارد المائية التي يتوافر عليها جبل صبر، ما منحه أهمية استثنائية بالنسبة لمدينة تعز عبر الحقب التاريخية وعلى رأسها العهد العثماني الأول، ويمكن تناول تلك الموارد على النحو الآتي:

أ- الأمطار:

تعد الأمطار المصدر الرئيسي للموارد المائية في جبل صبر، حيث تسقط عليه في فصلي الصيف والربيع بينما تقل في فصلي الخريف والشتاء، وبالرغم من عدم وجود إحصائيات كمية لنسب التهاطلات المطرية على جبل صبر خلال المدة الزمنية موضوع البحث؛ لعدم توافر أجهزة خاصة بذلك حينها والاكتفاء بالأوصاف المقتضبة التي وردت في بعض المصادر عن "السيول الكبيرة" "وسنوات الجفاف"[13]، التي شهدتها اليمن ومرتفعاتها قديماً بما في ذلك جبل صبر بلا شك، فإن الأجهزة الحديثة ومحطات الرصد المطرية تحيلنا على تباين كمية الأمطار الساقطة على الجبل -في العقد الأخير من القرن العشرين والأول من القرن الواحد والعشرين على سبيل المثال-من منطقة إلى أخرى تحت تأثير الموقع وعامل الارتفاع، ففي النطاق الأعلى يتراوح متوسط الأمطار ما بين750- 950ملم؛ بسبب الارتفاع الذي يعمل على اعتراض

الرياح الموسمية، وفي النطاق الأوسط تتراوح معدلات الأمطار بين 550–750ملم، أما في النطاق الأسفل فتتراوح بين 550–950ملم؛ بسبب مجاورته لبعض المناطق الجبلية المرتفعة، كجبل حبشي في الغرب، وكذا تخلل هذا النطاق لبعض المرتفعات والتلال الجبلية قليلة الارتفاع[14].

وبالرغم من أهمية الأمطار مورداً رئيساً للمياه في جبل صبر، سواء من حيث الاستفادة منها – بصورة مباشرة أو غير مباشرة – بتغذيتها للمياه الجوفية، إلا أننا نجد مع ذلك أن كميات كبيرة من مياه الأمطار تنصرف كضائعات مائية في الأودية الواطئة في النطاق الأسفل للجبل دون الاستفادة منها[15] فضلاً عن أن الأمطار الساقطة على الجبل تعد موسمية لا تتسم بالديمومة، حيث تتذبذب وتتغير مواعيد هطولها من عام لآخر، من حيث كميتها وتكرار هطولها وتوزيعها زمانياً ومكانياً[16]، بخلاف كثير من العيون أو الغيول التي تنتشر في جنبات الجبل ومديرياته الثلاث.

ب– العيون أو الغيول:

هي عبارة عن فتحات طبيعية في سطح الأرض تتدفق منها المياه تلقائياً، وتنتشر في أماكن الشقوق والانكسارات الموجودة في الصخور البركانية في جبل صبر[17]، وترتبط أساساً من حيث كميتها بسقوط الأمطار، حيث تكون غزيرة الإنتاج أثناء سقوط الأمطار في فصلي الربيع والصيف، وقليلة أثناء فترة الجفاف في الشتاء، ويتباين إنتاج بعض هذه العيون من المياه ما بين1– 10 لتر في الثانية، والبعض الآخر يزيد إنتاجها على 10لتر في الثانية[18].

وبالإضافة إلى كمية الأمطار، هناك عوامل أخرى تتعلق بالإنتاجية المائية للعيون مثل الوضع الطوبوغرافي، وسمك الطبقة الحاملة للماء، ودرجة نفاذيتها، إذ تظهر العيون أو الغيول والينابيع من بين الطبقات الصخرية البركانية بشكل أساس، فنرى تعاقباً بين الصخور البازلتية النفاذة بسبب الشقوق والصخور الأقل نفاذية، أو بسبب وجود سطوح حتية قديمة غنية بالعناصر الطينية، أو نتيجة الترسبات المائية التي تخللت الاندفاعات البركانية(فترات الهدوء البركاني)، وبسبب سقوط الأمطار تتوغل المياه عبر الشقوق السطحية، ولكن ما يلبث أن يخرج جزء منها إن وجد ظروفاً مناسبة مشكلاً ينابيع صغيرة في العادة، إلا أنها قد تكون غزيرة في الوقت ذاته، وقد لعبت الحركات البنائية دوراً مهماً في ظهور هذه الينابيع؛ حيث تساعد على ظهور السفوح شديدة الانحدار والجروف فتتدفق المياه نحو الخارج، وهي صالحة للري والشرب[19].

ومن خلال الدراسة الميدانية التي أجريناها للمنطقة، تبين أن جبل صبر يحتوي على عشرات العيون أو الغيول كما يسميها أبناء الجبل، والتي تعد مصادر ثابته للمياه دائمة الجريان، وتتناثر بين جنبات مدرجاته وتلاله في مديرياته الثلاث صبر الموادم، ومشرعه وحدنان، والمسراخ، إذ تشكل تلك الغيول والينابيع المصدر الأساسي لمياه الساكنة في قرى مديريات الجبل، سيما وأن تلك المياه تتسم بالعذوبة ما جعلها صالحة للشرب ولري المزروعات في الوقت نفسه.

على أننا سنقصر تركيزنا في هذا المقام على العيون أو الغيول والينابيع التي تنتشر في مدريتي صبر الموادم في شرق الجبل وبالذات منطقتي قراضة والمرزح، ومشرعة وحدنان في الغرب والشمال وبالذات قرى

الحجف والرحبة والأشاني والسوائل والجنات؛ نظراً لأهمية المديريتين بالنسبة لمدينة تعز خلال العهد العثماني الأول، من حيث ارتباطهما المجالي بالمدينةً بحكم عامل القرب، ولإمدادهما للمدينة بكميات مهمة من مياه تلك العيون والغيول، عبر تقنيات معينة سنتطرق لها لاحقاً.

ففي مديرية صبر الموادم هناك ما يزيد على 20 عيناً، عدد منها يصل ماؤها إلى مدينة تعز وهذه العيون بنوع من الترتيب المتدرج بحسب موقعها المكاني في جبل صبر الموادم من الأعلى إلى الأسفل هي: عين السوري في منطقة عميقة، عين الخشبة منطقة الموادم، عين العيون[20] منطقة قراضة عين أقمار منطقة المَرزُح، عيون دار النصر منطقة دار النصر حوالي أربعة عيون، عيون السوائل التي تتكون من قرابة أربعة عيون منطقة السوائل وحُدة، عين المائدة منطقة المائدة، عين الراكز منطقة الخَسِف، عين الأحبوش منطقة المغربة، عين ماء حُميد وتعد عيون دار النصر وعيون العيون من أبرز العيون التي كانت تصب في مدينة تعز القديمة ولا زالت حتى الآن وإن بكيفية أقل[21].

وفيما يخص مديرية مشرعة وحدنان فتحتوي على حوالي(17) عيناً، موزعة على عدد من القرى، ففي قرية الحجف توجد عيون: الشعيب، الكولة، الذنبة، الجسر، الحجف، السوري، خناق الزغيرة، وفي قرية الرحبة توجد عين سفال الجدبة، وعين أسعد، وفي قرية السوائل هناك عين سائلة الجديد وعين سائلة العميم، أما قرية الأشاني فتحتوي على عيون: سفال الجرة، باب الحوباني، الأويدي وسط الأشاني، الجنات، وأغلب هذه العيون كانت–ولا زالت– تصب مياهها في مدينة تعز، التي تسمى حالياً المدينة القديمة سيما المناطق القريبة مكانياً من هذه القرى في حارة الأشرفية وجامع المظفر وما جاورها، بواسطة مجموعة من السواقي، كما سيأتي معنا[22].

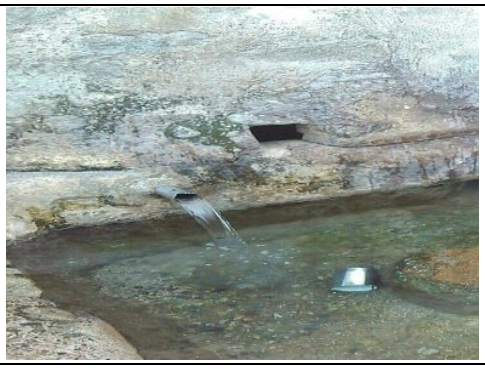	
صورة رقم1 يظهر فيها إحدى عيون دار النصر العذبة والغزيرة بمنطقة صبر الموادم. المصدر: الدراسة الميدانية للباحث، أبريل 2014م.	صورة رقم2 لعينين من عيون دار النصر منطقة صبر الموادم. المصدر: الدراسة الميدانية للباحث، أبريل 2014م.

صورة رقم3 تبين إحدى عيون قرية الحجف منطقة مشرعة وحدنان، وهي عين ذات مياه عذبة وغزيرة. المصدر: الدراسة الميدانية للباحث، أبريل 2014م.	صورة رقم4 لواحدة من عيون السوائل الجنات منطقة مشرعة وحدنان. المصدر: الدراسة الميدانية للباحث، أبريل 2014م.

ثانياً. مدينة تعز، المجال وتقنيات العثمانيين في تدبير مياه جبل صبر:

1. المجال:

تعز عاصمة اليمن الثقافية وعاصمة إقليم الجند حالياً، تقع عند أقدام جبل صبر الشمالية على ارتفاع 1680م تقريباً، وإلى الجنوب من مدينة صنعاء بحوالي 256كم23، وكان هذا الاسم يطلق على حصن المدينة أو قلعتها التي يرجع تأسيسها إلى عهد الدولة الصليحية(1045–1138م) وتحديداً على يد السلطان عبد الله بن محمد الصليحي[24]، أما المدينة فكانت تسمى عدينة ويرجع تأسيسها إلى عهد الدولة الأيوبية في اليمن(1173–1215م) على يد توران شاه شقيق صلاح الدين الأيوبي الذي اتخذها عاصمةً لدولته[25]، وخلال العهد العثماني الأول وتحديداً نهاية القرن العاشر الهجري، حملت المدينة الاسمين معاً في بداية الأمر لمدة محددة أي عدينة وتعز، وهي عادة شائعة تدل على شرف المدن ذات الاسمين[26]، ثم تغلب اسم تعز وصار منفرداً يعني المدينة، وأخذ الحصن اسما آخراً هو(القاهرة)، كما هو عهدنا الآن بالاسمين[27].

وفي هذا الصدد، نستطيع القول إن اختطاط مدينة تعز(القديمة) في الموقع الذي هي عليه لم يكن اعتباطياً بل كان مقصوداً؛ بما يلبي المعايير الأساسية لاختطاط موقع المدن العربية الإسلامية آنذاك والمتعلقة بـ"المشرب والمزرع والمحطب والحصانة"، بحيث يكون جبل صبر مصدر مائها، والقاهرة حصنها المنيع، ووادي عصيفرة والضباب جنائنها[28]، ما منح الموارد المائية لجبل صبر أهمية كبيرة بالنسبة للمدينة سيما مع التقارب الموقعي للجبل والمدينة[29]، وهذا ما دفع العثمانيون إلى التعامل معه حين قدموا إلى اليمن وسيطروا على تعز خلال عهدهم الأول.

2. العثمانيون وتعز ومياه صبر:

بعد أن نجح العثمانيون في السيطرة على تعز واكتشفوا أهميتها الاستراتيجية بالنسبة لخططهم في توسيع سيطرتهم وبسطها على سائر أرجاء اليمن، اتخذوا منها قاعدة عسكرية وعاصمة سياسية بداية الأمر،

وقاموا باتخاذ الإجراءات اللازمة لذلك، وفي مقدمتها مواجهة الاحتياجات المهمة للمدينة من المياه العذبة ومياه الأمطار من مصدرها الأساس جبل صبر، واستخدامها في أغراض متعددة تلبي متطلبات توسع المدينة وتنميتها في العهد العثماني الأول، وتضمن الاستقرار للقادة والأمراء والجنود العثمانيين من جهة، وسكان المدينة من اليمنيين من جهة ثانية.

أ- السيطرة العثمانية على تعز:

بدأت السيطرة العثمانية على اليمن بصورة غير مباشرة، عبر المماليك الذين اعترفوا بالسيادة العثمانية إثر نجاح السلطان العثماني سليم الأول[30] في القضاء على الدولة المملوكية والسيطرة على مصر سنة 923هـ/1517م[31]، وفي عهد السلطان سليمان القانوني[32] تمت السيطرة على اليمن، وبالأحرى السواحل الممتدة من جيزان شمالاً إلى عدن والشحر جنوباً بصورة مباشرة سنة 945هـ/1538م على يد سليمان باشا الخادم[33]، الذي حاول توسيع تلك السيطرة صوب المناطق الداخلية والجبلية لتشمل سائر أرجاء اليمن، ابتداءً بتعز التي مثلت نقطة الارتكاز في ذلك التوسع.

فقد أدرك العثمانيون أهمية موقع تعز الاستراتيجي الذي يتوسط مناطق اليمن ويمكن من يسيطر عليه من اتخاذه رابطاً وحلقة وصل بين المناطق الساحلية الغربية والجنوبية من جهة، ومفتاحاً للتقدم صوب المناطق الوسطى والشمالية الجبلية لليمن من جهةٍ ثانية، ما دفع العثمانيون إلى القيام بعدة محاولات للسيطرة على تعز، كانت أولاها حينما كلف سليمان باشا الخادم -قبيل مغادرته اليمن- سنجقي[34] زبيد وعدن بتحين الفرصة المناسبة والسيطرة على المدينة، لكنها صمدت أمام حصار العثمانيين عدة أشهر، وتسببت في تسجيل أول هزيمة لقواتهم على يد اليمنيين بعد حملة الخادم، كما تسببت في البداية الأولى -كما نعتقد- لحصول اليمنيين على السلاح الناري بما في ذلك المدافع خلال سنة946هـ/1540م[35].

كرر العثمانيون تلك المحاولة بعد توحيد ممتلكاتهم الساحلية في اليمن ضمن إيالة[36] واحدة يديرها بكلربك[37]، وتجهيز قوة كبيرة مزودة بعتاد حربي كبير بقيادة أويس باشا[38] الذي تمكن من استثمار انقسام الجبهة اليمنية بين الإمام شرف الدين[39] وابنه المطهر[40] ووقوف بعض عناصر تلك الجبهة في صف العثمانيين والسيطرة على المدينة في ذي الحجة 952هـ/فبراير1546م[41]، ومن ثم التوغل والتوسع نحو كافة مناطق اليمن الداخلية والجبلية، وبسط السيطرة عليها حتى سنة 1045هـ/1635م، تاريخ انتهاء العهد الأول للعثمانيين في اليمن، بمدة تربو على قرن من الزمن.

وعموماً، فبعد استقرار العثمانيين في تعز إثر سيطرتهم عليها برزت أمامهم المسألة المائية المرتبطة بحاجة المدينة للمياه، ووجود مصدر مائي مهم متمثل بجبل صبر الملتصق بالمدينة والقريب منها.

فماهي الأهمية التي تمثلها موارد جبل صبر المائية لمدينة تعز؟ وما مجالات استخدامها؟ وكيف تمكن العثمانيون من تدبير مياه الجبل لصالح المدينة وساكنتها؟

ب- أهمية مياه جبل صبر وتقنيات العثمانيين في تدبيرها:

موارد جبل صبر المائية في المصادر التاريخية:

بالعودة إلى المصادر التاريخية التي تحدثت عن مدينة تعز ومياه جبل صبر خلال العهد العثماني الأول، نجد أن هناك مصدرين أساسيين لمؤرخين من أبناء مدينة تعز عاصرا الأحداث التي شهدتها مدينتهما في ذلك العهد، وكانا لصيقا الصلة بالمدينة والجبل، ما يضفي أهمية كبيرة على المعطيات التي أورداها في مصدريهما، وهما كتاب مرآة المعتبر في محاسن جبل صبر لعبد الفتاح بن محمد بن علي المخلافي، الذي قدم وصفاً للجبل ومياهه العذبة بجانب مدينة تعز وبعض مكوناتها، بطريقة موجزة غلب فيها الشعر على النثر[42]، وامتزج فيها الأدب بالتاريخ، وكتاب الإحسان في دخول مملكة اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان لشمس الدين عبد الصمد الموزعي، الذي يعد مؤرخ تعز خلال العهد العثماني الأول كونه خصص أغلب معطيات الكتاب لمدينته تعز بما فيها جبل صبر، وللعثمانيين الذين تربطه بهم علاقة قوية بحكم منصبه الرسمي كنائب للشريعة في مدينة تعز، مع جزء يسير لأحوال بقية أرجاء اليمن آنذاك[43].

وبالرغم من هذه الأهمية للمصدرين، فإن الإشارات المتعلقة بمياه جبل صبر وآليات العثمانيين في تدبيرها لصالح مدينة تعز تعد قليلة جداً ومقتضبة، مقارنة بتلك المرتبطة بالجوانب الأخرى للمدينة والجبل خلال ذلك العهد سيما السياسية والعسكرية، على أن تلك الإشارات رغم قلتها واقتضابها قد أعطتنا مؤشرات مهمة على موارد مياه جبل صبر المائية ونوعيتها، وسياسة العثمانيين في تدبير تلك الموارد لفائدة مدينة تعز وساكنتها.

فقد تبين لنا من المصدرين، أن موقع جبل صبر وقربه من مدينة تعز منح الموارد المائية للجبل أهمية كبيرة بالنسبة للمدينة، وأن تلك الأهمية ترتبط إلى حد كبير بمجالات الاستخدام المختلفة، الموزعة بين مياه الشرب العذبة بالنسبة للأهالي بدرجة أساس والمواشي بدرجة تالية، والاستخدام المنزلي، والطهارة والوضوء سيما في المساجد والمدارس والقباب والأضرحة، وكذا ري المزروعات والبساتين.

وفي هذا الصدد، أشار المخلافي إلى الموارد المائية العذبة التي يمتلكها جبل صبر، والتي مصدرها العيون والينابيع ذات الجريان الدائم، حيث ذكر أن جبل صبر "جميعه عيون طافحة وسيول سارحة"[44]، كما وضح لنا بأن عدد تلك العيون "اثنتا عشر عيناً"، دون أن يذكر الأسماء أو يحدد مناطق تواجدها في الجبل، ووصف عذوبة مياهها "بالكوثر" و"الشهد"، وأكد لنا أن مدينة تعز تعتمد في الأساس على مياه جبل صبر التي يتم نقلها من تلك العيون إلى المدينة عبر السواقي، لكن دون أن يذكر أيضاً أية تفاصيل عن عدد تلك السواقي وكيفية إنشائها واتجاهات سيرها من الجبل إلى المدينة وإلى أية جهة منها تحديداً، وهو ما يتضح من خلال بعض الاستشهادات الشعرية التي أوردها في مصدره لشعراء آخرين أو من شعره هو في معرض وصفه للجبل والمدينة، ومن أمثلة ذلك:

وصف العلامة محيي الدين عبد العزيز الزمزمي المكي الذي وصل إلى تعز سنة 955هـ/1548م حين قال[45]:

ما جنة إلا تعز فكيف لا تلهى العيون بحسن منظرها النظر
ومن العجائب أن كوثر مائه كالشهد حلوه وهو يجري من صبر

وكذا وصف العلامة شهاب الدين أحمد بن عزوى بقوله[46]:

والنهر منهمر كالشهد من صبر وحكمة الله في الأضداد يلقيها

وما قاله شهاب الدين أحمد بن دبيس عن تعز[47]:

أرض يفيض إليها الشهد من صبر وما يفارق يجري في سواقيها

بالإضافة إلى ما أنشده المؤلف عن تعز[48]:

هي جنة قد زخرفت وازينت وزهت بها ولدانها والحور
وبها اثنتا عشرة عيناً تسقها كالشهد من صبر فداه الطور

العثمانيون وتقنيات تدبير مياه جبل صبر:

تجدر الإشارة في هذا المقام، إلى قلة المعطيات التاريخية التي تحدثت عن مياه جبل صبر ودور العثمانيين في نقلها إلى مدينة تعز، ونعتقد أن الموزعي هو المؤرخ الوحيد الذي تناول هذه القضية في مصدره –سابق الذكر– المعاصر للعهد العثماني الأول، فقد تحدث في البداية بصورة عامة مقتضبة عن اهتمام عدد من القادة والولاة والأمراء العثمانيين بالمسألة المائية واستخداماتها المتنوعة في مدينة تعز، دون الإشارة إلى الارتباط بجبل صبر وموارده المائية، وإن كنا نعتقد أن بعضاً منها مرتبط بمياه صبر بحكم القرب الجغرافي، وذلك عبر اللجوء إلى عدد من الآليات والتقنيات التقليدية لتدبير المياه وتهيئتها آنذاك، وعلى رأسها السواقي والمراقي أو الجسور والبرك والسدود وحفر الآبار الجوفية.

ويتضح ذلك من قيام الوالي العثماني محمود باشا[49] الذي قدم إلى اليمن سنة 968هـ/1560م، بجر الساقية إلى المسجد الذي بناه في حوض الأشرف(الأشراف حالياً) وإلى البستان المجاور له[50]، وكذا حينما أمر الوالي مراد باشا[51] الذي استقر في تعز سنة 986هـ/1578م، بإجراء الماء إلى البركات التي أنشأها أثناء توسعة جامع الشيخ الصوفي أحمد بن علوان[52] في منطقة يفرس بجبل حبشي، بهدف الطهارة وإقامة شعائر الدين، بجانب البئر التي احتفرها في الحصب وجعلها سبيلاً ينتفع القاطنون والمارون بها[53] وهي المنطقة التي تسمى حالياً بير باشا نسبةً إليه[54]، وما قام به سفر آغا[55] كاشف تعز في رجب سنة 996هـ/1588م، من توجيه المحابيس(السجناء) في سجن قلعة القاهرة بحمل الماء من السد الكبير في فناء القلعة والسدود الصغيرة المجاورة، إلى بستانه الخاص في القلعة حيث محل إقامته، وإن كان ذلك قد أرهق السجناء وأغضبهم ودفعهم لرمي الآغا إلى السد الكبير وإغراقه في الماء[56].

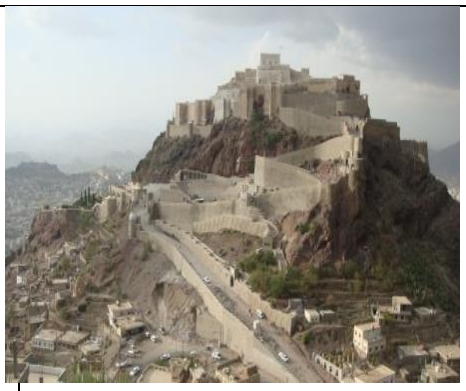	
صورة رقم5 تظهر فيها قلعة القاهرة من الجانب الأمامي مع السدود الموجودة فيها وجزء من مدينة تعز خلفها. المصدر: الدراسة الميدانية للباحث، أبريل 2014م.	صورة رقم 6 خاصة بالسد الكبير لقلعة القاهرة مع عدد من السدود الصغيرة المجاورة له. المصدر: الدراسة الميدانية للباحث، أبريل 2014م.

ضف إلى ذلك ما قام به حسين بك[57] من إنشاء بركة كبيرة ملاصقة لقصره الذي بناه عند محارث الشجر خارج سور المدينة(عصيفرة حالياً) وملأها بالماء لري البستان المحيط بقصره، وكذا قيامه بإجراء الماء إلى البستان الآخر تحت القصر الكبير الذي أنشأه داخل مدينة تعز[58]، وما قام به سنان باشا الكيخيا[59] إثر تعيينه والياً لليمن خلفاً لحسن باشا[60] سنة 1013هـ/1604م، حينما وجه بإنشاء "بركة يجتمع فيها الماء للوضوء وسقاية للشرب"، في الساحة الشرقية لقبة الشيخ الصوفي عبد الهادي السودي[61] والتي أعاد بنائها ووسعها الوزير المذكور بعد تسبب زلزال تلك السنة بتهدمها كلياً[62]، ولا زالت باقية إلى الآن كأكبر قبة في اليمن[63].

وإلى جانب تلك الإشارات العامة المتعلقة باستخدامات المياه وأهميتها لدى العثمانيين، أورد لنا الموزعي نصين مصدريين أوضح لنا فيهما بعض المعطيات المهمة عن مياه جبل صبر المطرية والعذبة، وإجراءات العثمانيين التقنية في التعامل معها لفائدة مدينة تعز، وسوف نلقي الضوء عليهما كما يأتي:

النص الأول:

يتعلق ببعض إجراءات التهيئة المائية التي استخدمها العثمانيون داخل المجال الحضري لمدينة تعز وخارجه في عهد الوالي حسين بك بن حسن باشا؛ وذلك بغرض تصريف مياه السيول أو الفيضانات وحماية المدينة من أضرارها، حيث ذكر الموزعي أن حسين بك قام "بإصلاح السبل والطرقات والنقل والمدرجات" في مدينة تعز، منها أنه "جعل في السائلة التي هي مسيل السيل النازل من سائلة السفساف مرقى(مرقاً) عظيماً قوياً مستقيماً، يمر الماء تحته وتمر المارة والقوافل فوقه... ومنها المدرج الذي في جبل صبر من عند دار السلف الى عند مشهد أهل الكهف، في طول ارتفاع جبل صبر وامتداده، مسافة مرحلة"[64].

ومن خلال هذا النص يتبين أن إجراءات التهيئة المائية التي قام بها والي تعز حسين بك تنحصر في إجراءين متعلقين بمياه الأمطار النازلة من الجبل إلى المدينة: الأول، يتمثل في إصلاح السوائل التي تتجمع فيها مياه الأمطار النازلة من جبل صبر والتي تخترق مدينة تعز، كحال تلك السائلة التي تمر غرب جامع المظفر[65]، والتي يغلب ظننا على استخدام العثمانيين فيها تقنية مزدوجة جمعت بين الجدران الساندة والجسور المحمولة على العقود الحجرية[66]، أما الإجراء الثاني، فيتمثل بإصلاح المدرجات والطرق كما هو شأن المدرج الذي يمتد من دار السلف في باب موسى بمدينة تعز، إلى الموقع الذي يعتقد أنه مكان أهل الكهف في أعلى جبل صبر[67]، والذي تم إصلاحه باستخدام تقنية الرصف بالأحجار التي تتلاءم مع شكل مدينة تعز المنحدر في سفح جبل صبر[68].

النص الثاني:

يتعلق بموارد مياه جبل صبر العذبة، والإجراءات التي اتخذها العثمانيون لنقلها إلى مدينة تعز بغية معالجة مشكلة شح المياه التي كانت تعاني منها المدينة آنذاك، ولا زالت مستمرة حتى يومنا هذا، وكذا الآلية التي اتبعوها لضمان نجاح واستمرار تلك الإجراءات في تحقيق أهدافها لمدة طويلة من الزمن.

وفي هذا الصدد، ذكر مؤرخ تعز خلال العهد العثماني الأول عبد الصمد الموزعي، أن الأمير محمد بن الوزير سنان باشا الذي تم تعيينه حاكماً على تعز ونواحيها من قبل والي اليمن الوزير جعفر باشا[69] سنة 1022هـ/1613م، اشترى من ماله الخاص عدداً من عيون جبل صبر ذات المياه العذبة، وأنشأ ساقية[70] تتجمع فيها مياه تلك العيون، ومدها من الجبل إلى المدينة وبالتحديد إلى جوار قصره في حارة المرباع الموجودة حالياً في حارة المتوكل بالمدينة القديمة، ثم جعل عند ذلك الماء سبيلاً(أشبه بالخزان) يشرب منه سائر الناس، وأصلح حوضاً خاصاً بشرب المواشي، فضلاً عن ري البساتين وما تحتويه من أشجار وفواكه، "فكم له من حسنات دائمة مفيدة، منها الساقية المباركة التي ملكت عيون مياهها بخالص ماله، وجرها من جبل صبر إلى مدينة تعز، ماؤها أعذب من السلسبيل وأشهى من الزنجبيل، جرها إلى جوار قصره السعيد بحافة المرباع بجوار تربة السادة، وجعل هنالك سبيلاً يدخل الماء إليه لاستقاء الناس منه، وحوضاً كبيراً يجتمع الماء فيه لشرب البهائم منه والمواشي، ينتفع به القاطن والمار والماشي"[71].

ولئن كان الموزعي لم يبين لنا أسماء تلك العيون التي اشتراها الأمير محمد أو يحدد جهات الجبل التي تنبع منها؛ كي نتمكن من مقارنة ذلك مع واقعها الحالي في الأسماء والجهات، إلا أننا نميل إلى القول بأن تلك العيون هي التي تنبع من قرى صبر مشرعة وحدنان في الغرب، خاصةً الحجف والرحبة والأشاني والسوائل والجنات، كما أن الساقية أيضاً تمتد من أماكن تجمع مياه عيون تلك القرى حتى المدينة القديمة، ولا تزال آثارها باقية حتى اليوم، وإن تم استخدام مواسير لنقل المياه بدلاً عنها، وهو ما تبينه صور الدراسة الميدانية التي قمنا بها.

صورة رقم7 لبدايات الساقية من قرى الأشاني والجنات باتجاه مدينة تعز. المصدر: الدراسة الميدانية للباحث، أبريل 2014م.	صورة رقم8 تظهر تعرج الساقية والتوائها لتتوائم مع تضاريس جبل صبر. المصدر: الدراسة الميدانية للباحث، أبريل 2014م.
صورة رقم9 تبين استمرار تعرج الساقية وامتدادها صوب المدينة. المصدر: الدراسة الميدانية للباحث، ابريل، 2014م.	صورة رقم10 يتضح فيها ارتفاع بناء الساقية واستواءها باتجاه مدينة تعز. المصدر: الدراسة الميدانية للباحث، أبريل، 2014م.

اهتم الموزعي بوصف الساقية وطريقة إنشائها، حيث ذكر أن أساساتها "رسخت في تخوم الأرض، وانتشرت أجنحة مداميكها في الطول والعرض، مبنية بالقطرة، مشيدة بالجص والنورة، عمقها قدر ذراع، وسمك بنائها يزيد على أربع قامات في الارتفاع"[72].

ولبيان الأهمية الكبيرة لهذه الساقية وفائدتها آنذاك، أشار الموزعي إلى الأسباب التي دفعت بالأمير محمد إلى إنفاق أموال طائلة لإنشائها، والمتمثلة بوجود أزمة مائية خانقة في مدينة تعز، سيما في المنطقة المجاورة لقصر الأمير، ما اضطر الأهالي إلى بذل أموالهم في سبيل الحصول على قليل من الماء للشرب لكن دون جدوى بسبب بعد المسافة، "فقد كان جيران محله المبارك متضررين من قل الماء لبعده منهم وعن مساكنهم، حتى أن أحدهم كان يبذل لمن يأتيه بقربة من الماء محلقين[عملة عثمانية آنذاك]، فلا يجد من يقبل ذلك منه لبعد مكان الماء، فصبروا حتى أنعم الله عليهم بمجاورة هذا الرجل السخي الكريم، فأجرى الماء إلى عند بيوتهم، ينتفعون به في حاجاتهم، ولشربهم وقوتهم... وبذل في ذلك أموالاً جزيلة ابتغاءً للثواب

من الملك الوهاب...وبذلت له الأدعية الصالحة من جميع الأنام خصوصاً وعموماً بسبب إغاثته العباد في هذا الماء... وصارت هذه الساقية صدقة دائمة باقية في صحائفه إلى آخر الزمان، لم يسبقه إليها من أهل زماننا إنسان"[73].

ونظراً لتلك الأهمية الكبيرة للساقية، وحرصاً على ضمان استمراريتها في أداء الغرض الذي أنشئت من أجله دون انقطاع، كما يحصل لكثير من مشاريع المياه اليوم، قام الأمير محمد بن سنان باشا بجعلها وقفاً وأوقف لها كثيراً من المرافق والممتلكات الخاصة به، وعين لها ناظراً أو مشرفاً، ووثق ذلك ببصيرة شرعية بخط مؤلف كتاب الإحسان الموزعي، الذي كان شاهد عيان على هذا المشروع المائي في شهر محرم سنة 1030هـ/1621م، إذ "لما أراد الله أن يكون الفضل كله للأمير محمد بن سنان، وقف المشار إليه جميع الماء المذكور من منبعه إلى مستقرة، مع عيونه وساقيته وممره ومقره على مصالح العباد الحاضر منهم والباد، وأوقف على ذلك أوقافاً عديدة، منها الدار المباركة السعيدة بحافة المرباع بتعز، مع الأبنية المتصلة بها والبساتين والأراضي التي يملكها في ولاية تعز والدكاكين...وجعل النظر والإشراف على هذه الأوقاف للشيخ الفاضل عامر بن عبد الوهاب القصار ثم إلى أولاده[74]، وأرسل إلى الفقير مؤلف هذا الكتاب بأن يسطر بصيرة حاوية لجميع المراد، منطوية على جميع ما أحب الواقف وأراد"[75].

ثالثاً. حرب المياه خلال العهد العثماني الأول:

نظراً للأهمية الكبيرة التي شكلتها مياه جبل صبر بالنسبة لمدينة تعز إبان العهد العثماني الأول، فقد تم استخدامها كإحدى وسائل الضغط القوية على الخصم بين القوى المتصارعة من اليمنيين والعثمانيين، بهدف الحصول على مكاسب سياسية أو مجالية تفضي إلى إبعاد إحدى القوى عن مجالات نفوذها وسيطرتها، وذلك من خلال القيام بقطع المياه عن مدينة تعز من مصادرها الأساسية في جبل صبر، الأمر الذي تسبب في نشوب الحرب والصراع العسكري، وأدى إلى خسائر بشرية ومادية بلا شك.

وفي هذا المقام، تشير المصادر التاريخية المعاصرة للعهد العثماني الأول في اليمن، أن سنة 1006هـ/1597م شهدت قيام حرب كبيرة بين العثمانيين بقيادة كاشف تعز ذو الفقار بك واليمنيين بقيادة الشيخ علي الشرجبي شيخ الحجرية[76]، وأن مياه جبل صبر كانت حاضرة بقوة في هذه الحرب؛ وقد كانت البداية حينما جمع الشيخ علي الشرجبي أتباعه من عدد من مناطق الحجرية بغرض الإفراج عن الرهائن والمساجين من أبناء منطقته لدى العثمانيين في سجون بعض قلاع تعز الحصينة، حيث استغل انشغال العثمانيين بالحشد للجمع لموسم الشيخ الصوفي أحمد بن علوان في منطقة يفرس بجبل حبشي خارج مدينة تعز[77]، وكذا نجاحه في اقتحام قلعة الحجرية القريبة من يفرس وإفراجه عن الرهائن والمساجين في تلك القلعة، في التقدم صوب مدينة تعز ومهاجمة قلعتها القاهرة من أجل الإفراج عن الرهائن والمساجين ونهب محتويات مخازنها من أسلحة وأموال وغذاء، وهو ما لم يتحقق بسبب حصانة القلعة ومدافعة العثمانيين عنها بقيادة ذو الفقار بيك[78].

حاول الشيخ علي الشرجبي تعويض فشله في السيطرة العسكرية المباشرة على قلعة القاهرة، من خلال الصعود إلى جبل صبر الموادم الملاصق للقلعة والحامي لها وللمدينة، وشن حرباً جديدة على العثمانيين في القلعة والمدينة بأسلوب غير مباشر من قمم جبل صبر، حيث المصدر الأساس للمياه التي قام بتوقيف تدفقها إلى تعز، من خلال قطع السواقي التي تتجمع فيها مياه عيون الجبل العذبة متجهةً صوب مدينة تعز وقلعتها الحصينة، بغرض إضعاف إمكانات العثمانيين المدافعين عنهما، سيما مع توجه الشرجبي إلى إطالة أمد الحرب المائية، التي مكنته في بداية الأمر من مهاجمة بعض المناطق الواقعة خارج سور المدينة ونهبها، وتحديداً المغربة وصينة والمداجر[79].

شكل نجاح علي الشرجبي واتباعه في قطع مياه جبل صبر عن مدينة تعز، وما تلاه من مهاجمة عدد من مناطق المدينة مما يلي السور، بادرة خطيرة وجرس إنذار مفاده أن الخطر الحقيقي أصبح قاب قوسين أو أدنى من مدينة تعز وقلعتها القاهرة، ما حدا بالعثمانيين إلى إعلان حالة الاستنفار القصوى في أوساط صفوف قواتهم، رغم تواجد جزء مهم من تلك القوات برفقة المسئولين العثمانيين في الجمع الصوفي عند ضريح الشيخ أحمد بن علوان، محاولين درء ذلك الخطر وضمان عدم تكراره مرةً أخرى، وقد اتخذ العثمانيون بقيادة ذو الفقار بيك من قلعة القاهرة محور الارتكاز في مهاجمة علي الشرجبي وأتباعه.

تم إخراج الأسلحة النارية وفي مقدمتها المدافع والبنادق والزربطانات أو آلات الرمي من الجبخانة أو مخزن السلاح، وأخذت أماكنها في مواقع القلعة المرتفعة والحصينة وبعض نقاط سور المدينة المعدة لذلك، ثم أطلقت صوب مناطق الجبل القريبة من القلعة والسور، حيث يتحصن أتباع الشرجبي الذين كانوا يسهرون على استمرار قطع سواقي مياه الجبل، ويخططون للانقضاض على المدينة والقلعة، ما أسفر عن هلاك عدد كبير منهم، وفرار الجزء الآخر في جنبات الجبل، وهناك تعرضوا لهزيمة أخرى من الجنود العثمانيين، الذين تمكنوا من تسلق أطراف الجبل مما يلي القلعة وقتل جزء من أتباع الشرجبي في الجبل، وإجبار من تبقى منهم بقيادة الشيخ علي الشرجبي على الصعود فارين إلى قمم الجبل ومن ثم الانكفاء نزولاً من جهته الخلفية عائدين إلى مناطقهم في الحجرية[80].

وعلى أية حال، فقد كان الهم الأكبر للجنود العثمانيين الذين صعدوا إلى جبل صبر كسب معركة المياه لصالحهم، من خلال إنهاء حصار المياه عن مدينة تعز وقلعتها، والعمل بصورة سريعة على إعادة سواقي المياه إلى سابق عهدها في التدفق المستمر من جبل صبر صوب المدينة، ما يمكننا من القول إن القائد العثماني ذو الفقار بيك قد أجاد التعامل مع حرب المياه التي شنها الشيخ علي الشرجبي بدهاء على العثمانيين، واستطاع أن يخلص مدينة تعز وسكانها من حصار مائي خانق، كاد أن يشل قدرتها على الصمود، ويسقطها بأيدي المهاجمين، وأن ينهي تلك الحرب لصالح العثمانيين، الذين اتخذوا بعد ذلك احتياطاتهم الدفاعية في ضمان أمن تعز المائي، من خلال تشديد الحراسات على مناطق السواقي القادمة من جبل صبر والنازلة باتجاه المدينة، خاصةً تلك القريبة منها ومن القلعة في منطقة الموادم المشرفة عليهما[81]، والتي تتدفق منها عدد مهم من عيون المياه العذبة، كما سبق معنا.

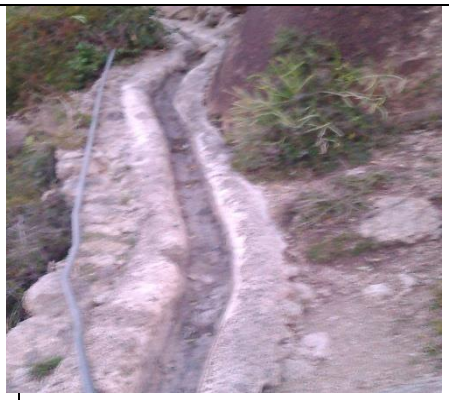	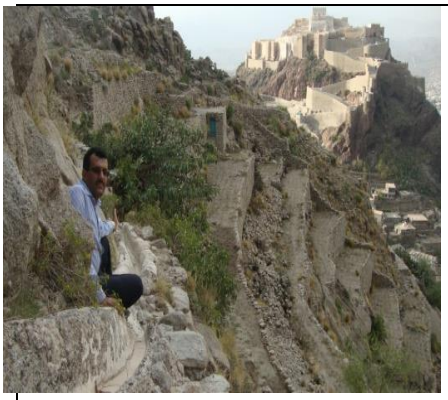
صورة رقم11 بداية ساقية عيون دار النصر صبر الموادم منحدرة صوب المدينة. المصدر: الدراسة الميدانية للباحث، أبريل 2014م.	صورة رقم12 تبرز استمرار الساقية في اختراق صبر الموادم باتجاه قلعة القاهرة والمدينة. المصدر: الدراسة الميدانية للباحث، أبريل 2014م.
	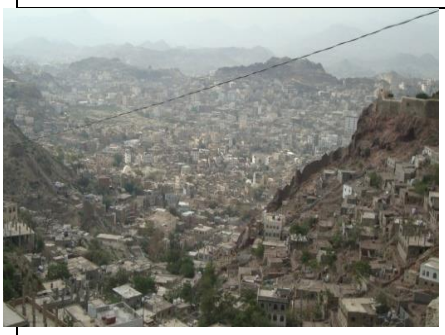
صورة رقم13 يظهر فيها بقايا الساقية القادمة من أعلى صبر الموادم مروراً خلف القلعة من ناحية المداجر نحو المدينة. المصدر: الدراسة الميدانية للباحث، ابريل، 2014م.	صورة رقم14 تبين جانب من منطقة المداجر المتصلة بالقلعة وجزء مهم من مدينة تعز(القديمة) حيث تنتهي الساقية القادمة من عيون صبر الموادم. المصدر: الدراسة الميدانية للباحث، ابريل، 2014م.

خـاتمــة:

تأسيساً على ما سبق ذكره في صفحات هذا البحث، فقد تبين لنا من خلال الدراسة الميدانية أن جبل صبر يكتنز موارد مائية كبيرة، سيما العذبة منها، ممثلة في عشرات العيون والينابيع التي تخرج من ثنايا الصخور البركانية للجبل وبالذات في مديريتي صبر الموادم ومشرعة وحدنان، وهو ما قام العثمانيون باستثماره لفائدة مدينة تعز التي كانت–ولا زالت–تعاني من شحة في المياه بمختلف مجالات استخداماتها إثر سيطرتهم عليها.

وقد برهن البحث على أن المسألة المائية في مدينة تعز احتلت أولوية في سلم اهتمامات الولاة والأمراء والقادة العثمانيون، الذين سعوا على وجه خاص إلى إنشاء السواقي والقنوات لنقل مياه جبل صبر العذبة إلى مدينة تعز، فضلاً عن قيامهم بتوفير الاستمرارية لتدفق تلك المياه إلى المدينة، من خلال ضمان موارد مالية كافية لتلك التقنيات بتخصيص أوقاف كبيرة ومتعددة لها، وتعيين مشرفين عليها لتنظيم وإدارة تلك الموارد، وليس ذلك فحسب، بل إنهم استخدموا آلتهم الحربية الثقيلة وفي مقدمتها المدافع ضد أية قوة تحول دون وصول مياه الجبل إلى المدينة، وهي إجراءات تحتاجها مدينة تعز اليوم، للتغلب على الأزمة المائية الخانقة، وإبعاد موارد الجبل المائية عن حسابات قوى السياسة والحرب.

الهوامش والمراجع:

1. خليل قاسم المقطري، "البعد التاريخي لمخاطر الفيضانات والتهيئة المائية في مدينة تعز، من الدولة الرسولية إلى دولة الوحدة"، كتاب: تعز (عاصمة اليمن الثقافية) على مر العصور، مؤتمر دولي خلال يومي 25_27مايو 2009م، ج 4، مؤسسة السعيد للعلوم والثقافة، تعز، ص 1392-1431.

2. عبد الفتاح بن محمد بن علي المخلافي، مرآة المعتبر في فضل جبل صبر، تحقيق محمد بن علي الأكوع، د.م، ط1، 1984م، ص13، 14(هامش1).

3. ابن المجاور، صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز المسماة تاريخ المستبصر، مراجعة وتهميش ممدوح حسن، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 1996م، ص186.

4. عبد الرحمن بن علي الديبع، قرة العيون بأخبار اليمن الميمون، تحقيق محمد علي الأكوع، د.م، ط2، 1988م، ص202.

5. كان سلمان ريس قد قدم إلى اليمن بصحبة حسين الرومي وتمكن من الاستيلاء على تعز، وقد كتب تقريره في 10 شعبان 931هـ/ 2 يونيو 1525م وقدمه للصدر الأعظم إبراهيم باشا، الذي قدم حينها إلى مصر لإخماد ثورة أحمد باشا. وبورصة هي مدينة تركية جبلية سهلية جميلة، يقع في جنوبها جبل أولوداغ ويعني بالتركية الجبل العالي، يصل ارتفاعه إلى حوالي 2550م، وكانت بورصة أول عاصمة للدولة العثمانية، بها مآثر تاريخية ومناظر خلابة. للمزيد عن التقرير وأسبابه ونتائجه انظر: فيصل عبد الله الكندري، "تقرير سلمان ريس"، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، العدد 48، 1994م، ص117_145.

6. أحمد محمد الشامي، رياح التغيير في اليمن، مكتبة الجيل الجديد، صنعاء، ط2، 2009م، ص229.

7. للاطلاع على أولئك الرحالة وتقصي أوصافهم وانطباعاتهم عن جبل صبر انظر: رياض أحمد محمد الصفواني، "تعز في عيون الرحالة في العصر الحديث 1762_1962م)، مجلة الثوابت، العدد67، يناير_مارس 2012م، ص89_130.

8. محمد أحمد محمد قاسم، أثر العوامل الجغرافية في استثمار المدرجات الزراعية بجبل صبر-محافظة تعز، رسالة ماجستير، كلية الآداب جامعة تعز، تعز، 2010م، ص1.

9. تعد مديرية صبر الموادم أكبر مديرية في جبل صبر بمساحة(20200)هكتار، تليها مديرية المسراخ(9060)هكتار، ثم مديرية مشرعة وحدنان التي لا تتجاوز مساحتها(1480)هكتار. علماً أن ال100 هكتار تساوي واحد كيلو متر مربع. للمزيد انظر: محمد علي عثمان المخلافي، موسوعة اليمن السكانية، دراسة السكان والمراكز السكانية في جميع مديريات ومحافظات الجمهورية اليمنية، مركز عبادي للدراسات والنشر، صنعاء، 2006م، ص271-275.
10. محمد عبد الباري القدسي، "جبل صبر والمناطق المجاورة"، مجلة دراسات يمنية، العدد 38، 1989م، ص249-271.
11. تهاني عباس أحمد عقلان، الإمكانات الجغرافية لحصاد مياه الأمطار في جبل صبر محافظة تعز باستخدام نظم المعلومات الجغرافية، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة تعز، تعز، 2010م، ص43-50؛ قاسم، 2010م، ص21-25.
12. علي مصطفى القيسي، "تقويم صلاحية مياه الينابيع في جبل صبر"، مجلة الجمعية الجغرافية اليمنية، العدد الثاني، 2003م، ص250-272.
13. انظر على سبيل المثال: عبد الرحمن بن علي الديبع، الفضل المزيد على بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد، تحقيق يوسف شلحد، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، دار العودة، بيروت، 1983م، ص246-350؛ عبد القادر بن شيخ العيدروس، النور السافر عن أخبار القرن العاشر، تحقيق أحمد حالو؛ محمود الأرناؤوط؛ أكرم البوشي، دار صادر، بيروت، ط1، 2001م.
14. فهمي علي سعيد نعمان، الأمطار في اليمن، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامع بغداد، بغداد، 1996م، ص30، 69؛ عقلان، م.س، ص، 2010م، ص45-48.
15. القيسي، 2003م، ص255.
16. عقلان، 2010م، ص61.
17. قاسم، 2010م، ص49.
18. القيسي، 2003م، ص257، 258.
19. القيسي، 2003م، ، ص258.
20. سميت عين العيون كونها مكونة من حوالي 6 عيون، وهي عين الجوهرة ، عين الناتش، عين التألب، عين السائلة، عين المعهد، عين رأس المرزح. المصدر: الدراسة الميدانية، التي أجراها الباحث - بالاستعانة بالدكتور عبد الغفور النجار أحد ابناء المنطقة- بتاريخ 2014/4/14م.
21. المصدر: الدراسة الميدانية، 2014/4/14م.
22. المصدر: الدراسة الميدانية، 2014/4/14م؛ رضوان أحمد قاسم، لمحة عن جبل صبر وقراه المجاورة لمدينة تعز، مقال غير منشور، نوفمبر، 2012م، ص1-87.
23. فيصل سعيد فارع، تعز: فرادة المكان وعظمة التاريخ، مؤسسة السعيد للعلوم والثقافة، ط2، 2012م، ص43، 44.
24. حسين بن فيض الله الهمداني، الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن، وزارة الثقافة، صنعاء، 2004م، ص88.
25. فيصل بجاش علي حميد، "دوافع تأسيس توران شاه لمدينة تعز"، كتاب: تعز(عاصمة اليمن الثقافية) على مر العصور، مؤتمر دولي خلال يومي25_27مايو 2009م، تنسيق عبد الحكيم عبد الحق، ج1، مؤسسة السعيد للعلوم والثقافة، تعز، 2010م، ص182_198.
26. المخلافي، 1984م، ص16.
27. محمد محمد المجاهد، مدينة تعز غصن نظير في دوحة التاريخ العربي، عدن للطباعة والنشر، ط2، 2007م، ص96.
28. المقطري، "البعد التاريخي لمخاطر الفيضانات والتهيئة المائية في مدينة تعز..."، كتاب: تعز(عاصمة اليمن الثقافية) على مر العصور...، 2009م، ج4، ص1398.
29. قاسم، 2010م، ص3.
30. **سليم الأول:** هو ابن السلطان العثماني بايزيد الثاني، ولد في أماسيا سنة 885هـ/1480م، تولى عرش السلطنة العثمانية سنة 918هـ/1512م، عقب ثورة عارمة على والده، لقب بـ "ياووز" (أي القاسي) أوالرهيب، نجح في هزيمة الشاه الصفوي في معركة جالديران سنة 920هـ/1514م، ثم حارب المماليك وهزمهم في عركة مرج دابق في رجب 922هـ/أغسطس 1516م، وسيطر على

بلاد الشام على إثر مقتل السلطان المملوكي قانصوه الغوري، كما سيطر على مصر إثر معركة الريدانية في محرم 923هـ/ يناير 1517م، وتخلص من طومان باي آخر حاكم مملوكي هناك، وقد نجم عن ذلك تبعية الحجاز والأماكن المقدسة للدولة العثمانية، وبالتالي أصبح سليم الأول أول من حمل لقب خادم الحرمين الشريفين، توفي في شوال926هـ/ سبتمبر1520م، عقب مرض ألم به في الطريق بين استانبول وأدرنة، كان متذوقاً للشعر ناظماً له، متأثراً إلى حد كبير بالمتصوف محيي الدين بن عربي. انظر: إبراهيم بك حليم، الدولة العلية العثمانية، المسمى التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية، عالم الكتب، بيروت، ط1، 2002م، ص111_117؛ أكمل الدين إحسان أوغلى(إشراف وتقديم)، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، ترجمة صالح سعداوي، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، استانبول، د.ط، 1999م ص31_33؛ عبد الرحيم بنحادة، العثمانيون، المؤسسات والاقتصاد والثقافة، اتصالات سبو، الدار البيضاء، ط1، 2008م، ص 35_38، 294، 295؛ خالد عزب، "لقب خادم الحرمين الشريفين"، الاجتهاد، دار الاجتهاد، بيروت، العدد36، 1997م، ص75_86.

31. جرجي زيدان، مصر العثمانية، تحقيق محمد حرب، الآفاق العربية، القاهرة، ط1، 2002م، ص67.

32. **سليمان القانوني:** أو سليمان الأول ولد سنة900هـ/1494م، هو ابن السلطان سليم الأول، تولى سنجق كافا زمن جده بايزيد وفي عهد والده كان والياً على مانيسا لكن دون أن يكون له أي دور في الحياة العامة للدولة، تولى عرش السلطنة العثمانية بعد وفاة والده سليم الأول في شوال 926هـ/ سبتمبر 1520م، واستمر حكمه مدة 46 سنة وهي أطول مدة حكم لسلطان عثماني، وحينها أثبت السلطان قدرة كبيرة وجدارة فائقة في التدبير وتوسيع حدود الدولة، حيث قام بحوالي 22 حملة عسكرية قاد 13 منها، ما أدى إلى بلوغ الدولة العثمانية في عهده أوج قوتها وعظمتها واتساعها براً وبحراً، بحيث يعتبر عهده العهد الذهبي لها، لقبه بعض الأوربيين بالعظيم والكبير، بينما لقب من قبل شعبه بالقانوني؛ لكثرة ما سن من القوانين والنظم ولتطبيقه لها بعدالة، تميز عهده بحركة عمرانية منقطعة النظير، وبانتعاش الحركة الإبداعية والأدبية، خاصةً وأنه كان شاعراً من الدرجة الرفيعة حسب مؤرخي الأدب العثماني، توفي في صفر 974هـ/ سبتمبر 1566م مخلفاً وراءه دولة مترامية الأطراف تتعدى مسؤولياتها عالم المتوسط القديم، لتنسج سياسة كونية، ترتكز على 350 ألف من الجند النظاميين، بين أيديهم 300 مدفع و300 سفينة حربية تجوب بحار المتوسط والأسود والأحمر والخليج العربي والمحيط الهندي. انظر: استانلي لين بول، طبقات سلاطين الإسلام، ترجمة مكي طاهر العكبي، الدار العالمية، د.م، ط1، 1986م، ص176؛ يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة عدنان محمود سلمان، ج1، منشورات مؤسسة فيصل للتمويل، استانبول، ط1، 1988م.، م.س، ص355؛ بنحادة، 2008م، ص296، 297؛ حضرة عزتلو بك أصاف، تاريخ سلاطين بني عثمان من أول نشأتهم حتى الآن، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط1، 1995م، ص60_66؛

G. Veinstein, "Sülyman I", Encyclopédie de l'Islam, tome IX, E.J Brill, Leiden, , 1998, pp868-877.

33. **سليمان باشا الخادم:** هو سليمان باشا الأرناؤوطي، من أصل يوناني، اشتهر بالخادم ولقب بالطواشي، يعتبر من كبار إداريي الدولة العثمانية وقادتها البارزين في القرن 10هـ/16م، كان والياً على مصر قبل أن يتوجه بحملة عسكرية إلى الهند مارا بالسواحل اليمنية لمقاتلة البرتغاليين هناك، لكنه انسحب بجنوده دون أن يحقق نتيجة مهمة ضد البرتغاليين وهو ما عوضه بنجاحه في إخضاع السواحل اليمنية للسيطرة العثمانية، عين صدراً أعضماً سنة 947هـ/1541م، ثم انسحب من الحياة السياسية بعد أن غضب عليه السلطان القانوني وتوفي في إقطاعه الخاص باستانبول سنة 960هـ/1553م وقيل إنه انتحر. انظر: قطب الدين النهروالي، البرق اليماني في الفتح العثماني، تاريخ اليمن في القرن العاشر الهجري، مع توسع في أخبار غزوات الجراكسة والعثمانيين لذلك القطر، تحقيق حمد الجاسر، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، ط2، 1986م، ص70_97؛ سيد مصطفى سالم، الفتح العثماني الأول لليمن(1538_1635م)، دار الأمين، القاهرة، ط5، 1999م، ص150_ 168.

34. **سنجق:**(سنجاق، صنجق كما في بعض المراجع) لفظ تركي_ فارسي، جمعه سناجق أو صناجق، ويعني علم كبير أو راية (لواء) من قماش حريري بألوان مختلفة ترفع على رمح، وكان للعثمانيين في البداية علم أبيض وفي أوائل القرن9هـ/15م أصبح لون العلم أحمر ثم تعددت ألوانه في عهد السلطان سليمان القانوني، حيث كانت ترفع أعلام خضراء وحمراء وصفراء، أما في عهد السلطان سليم الثالث فكان لون العلم أحمر يتوسطه هلال و3 نجوم، والسنجقدار مرتبة عسكرية كانت معروفة عند المماليك، حاملها من فئة المماليك السلطانية، مهمته حمل الراية إلى جانب السلطان أثناء السفر، ثم تحول معنى هذا اللفظ في العصر العثماني ليصبح له معنى إداري وعسكري يدل

على منطقة بعينها، وقد ظل السنجق الوحدة الأساسية في التقسيمات الإدارية عند العثمانيين حتى افتتاح القسطنطينية في منتصف القرن9هـ/15م، ومنذ ذلك الحين استبدلت السنجقية بالولاية وأصبحت وحدة إدارية تابعة للولاية يدير شؤونها السنجقدار، الذي يأتي في المقام الثاني من حيث الأهمية بعد الوالي ويخاطب بلقب سنجق بك. انظر: أوغلى، 1999م، ص259_261؛ بنحادة، 2008م، ص331، 332؛ خالد زيادة، المصطلح الوثائقي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط2، 2008، ص67؛ مصطفى عبد الكريم الخطيب، معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1996م، ص259؛ سهيل صابان، المعجم الموسوعي للمصطلحات التاريخية العثمانية، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ط1، 2000م، ص136؛ محمد أحمد دهمان، معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط1، 1990م، ص93؛ محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق إحسان حقي، دار النفائس، بيروت، ط5، 1986م، ص226(هامش رقم5)؛ J. Deny.(M.Kunt),"SANDJAK", Encyclopédie de l'Islam, Tom IX, op.cit, pp12-14.

35. عيسى بن لطف الله، روح الروح فيما حدث بعد المائة التاسعة من الفتن والفتوح، تحقيق إبراهيم المقحفي، مركز عبادي للدراسات والنشر، صنعاء، ط1، 2003م، ص110.

36. **إيالة:** مصطلح إداري من العصر العثماني قبل إلغاء الإنكشارية، ويقصد به الولاية، وكانت الولاية تحمل اسم "بكلربيلك" قبل أن تسمى بعد سنة998هـ/1590م "إيالة"، وهي أكبر الوحدات الإدارية والعسكرية في الدولة العثمانية، يرأس حكمها البكلربك أو الوالي أو الباشا، الذي كان يحوز على رتبة الوزارة ويتمتع ببعض الصلاحيات والامتيازات إذا تم تعيينه على إيالة مهمة كمصر واليمن على سبيل المثال، وكانت الإيالة مقسمة بدورها إلى عدة سناجق، والسنجق إلى قائمقاميات، والقائمقامية إلى عدد من النواحي. انظر: أوغلى، م.س، 1999م، ص249، 273؛ بنحادة، العثمانيون...، م.س، ص140؛ صابان، م.س، ص45؛ الخطيب، ص57، 58.

37. **بكلربك:** أو بكلربكي، يعني بالتركية بك البكوات، كان هذا اللقب يعطى في عهد المماليك لأتابك العسكر أو الأمير الكبير، ثم أعطاه الأتراك العثمانيون لأول مرة لحاكم الإيالة أو الولاية، أي للأمير المشرف على مجموعة من البكوات حكام السناجق على عهد السلطان مراد الأول(764_791هـ/1362_1389م)، وبذلك فإن البكلربك هو الوالي في الدولة العثمانية ويحمل لقب الباشا، وهو رأس الحكم في الإيالة، وقد أطلقت عليه المصادر العثمانية إلى جانب ذلك اسمي مير ميران وأمير الأمراء، ويلفظ في اللغة العثمانية "بيلربي"، ثم أصبح اسمه الوالي مع مقدم القرن الثامن عشر، سماه المؤرخون العرب أيضاً المحافظ أو النائب أو الكافل، وكان يستخدم في النظم العثمانية في البداية بمعنى القائد(قومندان) صاحب الصلاحيات العسكرية الواسعة، بحيث كان هناك بكلربك واحد يأتي بعد السلطان، ولما اتسعت الدولة العثمانية وتشكلت الإيالات انقسم هذا المنصب إلى قسمين، أحدهما للأناضول والآخر للروملي ثم ازداد عددهم بعد ذلك وأصبح البكلربك يتمتع بالصلاحيات الإدارية والعسكرية معاً، وكان يحصل على سنجق مترامي الأطراف وعلى أملاك "خاص" بحيث يتراوح مدخوله ما بين 600000_ 1000000 أقجة. انظر: محمد بن أبي السرور، المنح الرحمانية في الدولة العثمانية وذيله اللطائف الربانية على المنح الرحمانية، تحقيق ليلى الصباغ، دار البشائر، دمشق، ط1، 1995م، ص7(هامش رقم2)؛ أوغلى، 1999م، ص252_259؛ خليل ساحلي أوغلي، "قانون نامة آل عثمان(ترجمة)"، دراسات، الجامعة الأردنية، عمان، العدد4، 1986م، ص107_193؛ صابان، 2000م، ص64؛ بنحادة، 2008م، ص140.

38. **أويس باشا:** هو أحد مماليك السلطان سليم الأول، ويقال إنه ابنه من جارية ملك اليمين، اشتهر بالشجاعة والإقدام، بالإضافة إلى التهور وشرب الخمر، ترقى في المناصب إلى أن عين والياً لليمن، وفي عهده بدأ التوسع العثماني نحو الداخل بالسيطرة على تعز حتى ذمار، وحاول التوجه شمالاً نحو صنعاء، لكنه قتل في ذمار وهو في حالة سكر على يد حسن البهلوان في ربيع الأول 954هـ/يوليو 1547م، وقد قيل إن ذلك كان باتفاق مع الأمير أزدمير. انظر: عبد الله بن صلاح الدين بن داوود بن داعر، الفتوحات المرادية في الجهات اليمانية، مخطوطة مصورة محفوظة بمكتبة جامعة القاهرة، تحت رقم26421، ج1،ق188؛ النهروالي، 1986م، ص95 _97؛ القاسم، ابن، يحيى بن الحسين، غاية الأماني في أخبار القطر اليماني، تحقيق سعيد عاشور، دار الكتاب العربي، القاهرة، د.ط، 1986م ، ص694 _698؛ الكبسي، محمد بن إسماعيل، اللطائف السنية في أخبار الممالك اليمنية، تحقيق خالد الأذرعي، مكتبة الجيل الجديد، صنعاء، ط1، 2005م ، ص240، 241؛ أوزتونا، 1988م، ص332؛ يمن سالنامه سى، سنة 1314هـ/1896_97م(باللغتين العثمانية والعربية)، ص359؛

Hulûsi, Yavuz Yemen'de osmanlı hakimiyeti (1517-1571), S.E, Istanbul, 1984, , s54_56 .

39. **الإمام شرف الدين:** هو شرف الدين يحيى بن شمس الدين بن أحمد بن يحيى المرتضى، لقب بالمتوكل على الله، ولد في رمضان سنة 877هـ/ يناير1472م، يعد من كبار أئمة المذهب الزيدي، له العديد من المؤلفات الفقهية منها كتاب الأثمار في فقه الأئمة الأطهار، عاصر دخول المماليك ثم العثمانيين إلى اليمن، ودخل معهم في صراع حتى توفي بحصن الظفير بحجة سنة 965هـ/1557م. انظر: محمد بن علي الشوكاني، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، تحقيق حسين بن عبد الله العمري، دار الفكر، بيروت، ط1، 1998م، ص278_280؛ محمد بن يحيى بهران، ابتسام البرق، شرح القصص الحق في سيرة خير الخلق، تحقيق يحي عبد الكريم الفضيل، دار الكتب، صنعاء، ط1، 1974م، ص8؛ عبد السلام الوجيه، أعلام المؤلفين الزيدية، مؤسسة الإمام زيد الثقافية، صنعاء، ط1، 1999م، ص1134_1136؛ جمال الدين أبي علوي محمد الشلي، السناء الباهر بتكميل النور السافر في أخبار القرن العاشر، تحقيق إبراهيم بن أحمد المقحفي، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ط1، 2004م، ص444؛ محمد فيصل عبد العزيز الأشول، الإمام شرف الدين ودوره السياسي في اليمن(912_965هـ)، رسالة ماجستير، كلية الآداب، الجامعة اليمنية، صنعاء، 2004_2005م، ص27_41.

40. المطهر: هو الابن الأكبر للإمام شرف الدين يحيي بن شمس الدين، ولد في رجب 908هـ/1503م بحصن الظفير من بلاد حجة على الأرجح، أمه تاج البهاء بنت شمس الدين بن الخضر صاحب حصن قاهر في همدان، أظهر مبكراً مهارات عسكرية وسياسية متميزة، وخاض صراعاً عنيفاً مع القوى التي كانت موجودة آنذاك في الساحة اليمنية وعلى رأسها القوة الطاهرية ثم المملوكية فالعثمانية لمدة أكثر من نصف قرن من الزمن، نصفها ضد العثمانيين وحدهم، وهو ما دفعهم إلى توجيه حملات عسكرية متعددة إلى اليمن بهدف القضاء على مقاومته، ويعد المطهر من الشخصيات البارزة التي أسهمت في صنع الأحداث السياسية في تاريخ اليمن الحديث مطلع القرن10هـ/16م، كما أنه يعد واضع اللبنات الأولى للدولة الزيدية التي استمرت في حكم اليمن حتى عام 1382هـ/1962م، توفي في ظروف غامضة سنة980هـ/1572م. انظر: الشوكاني، 1998م، ص309؛ الحسن بن عبد الرحمن بن محمد الكوكباني، المواهب السنية مما من الله من الفواكه الجنية من أغصان الشجرة المتوكلية، ج1، مخطوطة محفوظة بدار المخطوطات، الجامع الكبير، صنعاء، تحت رقم 2626، ق25؛ محمد بن محمد بن يحيى زباره، أئمة اليمن، ج1، مطبعة النصر، تعز، ط1، 1952م، ص409؛ عبد القوي علي أحمد سعيد المخلافي، الإمام المطهر بن شرف الدين ودوره السياسي في تاريخ اليمن(924_980هـ/1518_1572م)، رسالة ماجستير، كلية التربية، جامعة حضرموت للعلوم والتكنولوجيا، 2005م، ص17_21، 99؛

Mutahhar", Encyclopédi de l'Islam,Tome VII, E.J. Brill, Leiden,1993, p763. J. R. BlackBurn,"AL-

41. تسبب الإمام شرف الدين بتقسيمه ممتلكاته بين أبنائه وتعيين ابنه علي ولياً للعهد دون ابنه الأكبر المطهر، بحدوث انقسام في أسرة آل شرف الدين وتحريض المطهر للعثمانيين واليمنيين على السواء ضد أبيه وأخوته، الأمر الذي أسهم في سقوط تعز بيد العثمانيين خصوصاً مع المساندة التي تلقوها من زعماء الإسماعيلية وكذا من أفراد حامية المدينة، الذين تمردوا على عامل الإمام شرف الدين يحي النصيري وانضموا إلى معسكر أويس باشا بتحريض من المطهر. حول هذا الموضوع انظر: النهروالي، 1986م، ص95، 96؛ ابن لطف الله، 2003م، ص112_118؛ ابن القاسم، 1986، ص690_693.

42. رجح المحقق الأكوع أن المؤرخ المخلافي ينتمي إلى مخلاف حاتم(القفاعة حالياً) وهي المنطقة ذاتها التي ينتمي الباحث إليها، وأنه يشتم من كلامه أنه من أعيان أواخر القرن العاشر الهجري(أواخر القرن السادس عشر وبدايات القرن السابع عشر)، رغم عدم عثوره على أية ترجمة لمولد المؤلف ولا حياته أو وفاته، وهو ما لم نتمكن من العثور عليه حين قيامنا بالتساؤل والبحث عنه في منطقة المخلاف لدى المعمرين من أبنائها، ولعلنا نتوفق في الحصول على أية إشارات مستقبلاً تفك غوامض حياة هذا المؤرخ. انظر: المخلافي، 1984م، ص8.

43. للمزيد انظر: سيد مصطفى سالم، المؤرخون اليمنيون في العهد العثماني الأول، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، ط1، القاهرة، 1971م، ص55-63. تجدر الإشارة إلى أننا أنجزنا بحثاً في طريقه إلى النشر حول هذا المصدر بعنوان: مؤرخوا تعز ومؤلفاتهم خلال العهد العثماني الأول، الموزعي وكتابه الإحسان نموذجاً.

44. المخلافي، 1984م، ص14.

45. المصدر نفسه، ص18.

46. المصدر نفسه، ص19.

47. المصدر نفسه، ص20.

48. المصدر نفسه، ص32.

49. محمود باشا: من أصول بوسنية، تدرج في المناصب حتى وصل إلى بكلربك حيث عينه داوود باشا كتخدا في دمشق، أثناء مروره بها في طريقه إلى مصر ليكون بكلربك عليها، وحينما وصل إلى مصر عينه أميراً للحج المصري سنة 957هـ/1550م، ثم أصبح سنجق بك في عهد بكلربك مصر خادم علي باشا، الذي ساعده بعد ذلك في الحصول على منصب بكلربك اليمن، وبعد أن عزل منها تم تعيينه بكلربك على مصر في 1 شوال 973هـ/21 أبريل 1566، واستمر في هذا المنصب حتى تم قتله في 24 جمادي الأولى 975هـ/26 نوفمبر 1567م، وقد وصفه النهروالي الذي قابله في جدة في محرم 968هـ/سبتمبر 1560م بأنه "كان سفاكاً، كثير القتل، نهاباً وهاباً، يحب الزينة واللباس الفاخر، وآلات الذهب والفضة، كثير السخط عظيم الغضب". انظر: النهروالي، 1986م، ص126، 127؛ ابن أبي السرور، المنح الرحمانية في الدولة العثمانية وذيله اللطائف الربانية على المنح الرحمانية، تحقيق ليلى الصباغ، دار البشائر، دمشق، ط1، 1995م، ص47؛

J. R. Blackburn, "Mahmüd Pasha", Encyclopédi de l'Islam, Tome VI, , E.J. Brill, Leiden, . . 1991, p70

50. شمس الدين عبد الصمد الموزعي، الإحسان في دخول مملكة اليمن تحت ظل آل عثمان، تحقيق عبد الله محمد الحبشي، منشورات وزارة الأوقاف والإرشاد، صنعاء، د.ط، د.ت، ص35.

51. مراد باشا: كان أحد الأمراء الذين خدموا محمود باشا حين ولايته على اليمن، ثم انتقل معه إلى مصر وأصبح كتخذاه، وبعدها أصبح والياً على الحبشة، وعينه السلطان العثماني مراد الثالث(982_1003ه/1574_1595م) والياً على اليمن خلفاً لبهرام باشا، وقد شهدت اليمن في عهده نوع من الاستقرار خاصةً مع اتسامه بالعدل الذي تجلى بإنصاف اليمنيين ومعاقبة الأمراء والجند العثمانيين بسبب مظالمهم في حق اليمنيين، وإيقافه لعدد من التصرفات التي كانت تصدر عن أولئك وتسبب تذمر اليمنيين، تنقل بين زبيد وتعز وصنعاء، توفي سنة 1020هـ/1611م ودفن في القسطنطينية. انظر: محمد أمين المحبي، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، ج4، دار صادر، بيروت، د.ط، د.ت، ص357، 358؛ سالم، 1999م، ص322-231.

52. يعد الشيخ أحمد بن علوان من أشهر صوفيي اليمن في القرن السابع الهجري، اتسمت صوفيته بنزعة إيجابية في عدد من مواقفه إزاء بعض قضايا التصوف، ما جعل لصوفيته نوعاً من الخصوصية والتفرد، وقد توفي سنة 665هـ/1267م على الأرجح. للمزيد حول هذا الموضوع انظر: جميل سلطان الصهباني، "أحمد بن علوان وخصوصية الموقف الصوفي"، كتاب: تعز(عاصمة اليمن الثقافية)على مر العصور، مؤتمر دولي خلال يومي 25_27مايو 2009م، ج4، مؤسسة السعيد للعلوم والثقافة، تعز، ص1277-1294.

53. الموزعي، د.ت، ص57، 59.

54. قيل إن مياه هذا البئر كانت تؤثر سلباً على من يداوم الشرب منها، بتعرض أقدامه إلى نزيف وجراح وقيح، وقد استمرت هذه البئر إلى ما بعد قيام ثورة سبتمبر1962م، حين وصلت المياه النقية إلى تلك المنطقة فاستغنى الأهالي عن البئر وطمروها نهائياً، وهنا ينبغي التنويه إلى أن محقق كتاب الإحسان قد اعتقد خطأً بوجود هذا البئر في منطقة حصبان صبر. انظر: المجاهد، 2007م، ص102.

55. آغا: كلمة تركية محرفة عن أصلها الفارسي(وقيل المغولي):آقا، أو آفا بمعنى الأب أو العم أو الأخ الكبير، وتأتي أيضاً بمعنى السيد الآمر. استعملها العثمانيون الأتراك للدلالة على عدة أمور: أبرزها ضباط الانكشارية الأميين الذين لا يحتاج عملهم إلى معرفة القراءة والكتابة، ومنها صاحب المنصب الكبير، وكان هذا المنصب مهماً للغاية في عهد قوة الدولة العثمانية ونفوذها، وفي مراحلها الأخيرة أصبح يطلق على الإنسان الكريم صاحب المكانة العالية والفضيلة، كما كان يدل في الوقت نفسه على التكبر والتفاخر، أما آغا الانكشارية فيعني قائد القوات العسكرية للدولة العثمانية. للمزيد حول هذا الموضوع، انظر: الخطيب، 1996م، ص11، 12؛ صابان، 2000م، ص15_20؛ محمود علي عامر، "الانكشارية نشأتها وتطورها"، الإكليل، وزارة الإعلام والثقافة، صنعاء، العددان1، 2، 1990م، ص45_54.

56. الموزعي، د.ت، ص66.

57. **حسين بك:** هو ابن والي اليمن حسن باشا، عين من قبل والده حاكماً على ولاية تعز وأعمالها سنة 999هـ/1591م، وقد تمكن خلال مدة قصيرة لم تتجاوز ثلاث سنوات - تمثل مدة حكمه- من الاستناد إلى حالة الاستقرار والازدهار في عهد والده وأنشأ عدداً مهماً من القصور والعمائر والأعمال الإنشائية الخدمية في مدينة تعز التي توفي بها وخلد ذكره فيها بأمر أبيه في القبة المشهورة باسمه قبة الحسينية، (التي تنتظر الترميم من قبل الوكالة التركية للتعاون الدولي(تيكا) عبر مركزها في صنعاء بعد استكمال الدراسة الخاصة بذلك إثر معاينة القبة من قبل الوفد التركي الذي رافقه الباحث أواخر 2013م). انظر: الموزعي، ص66_71.

58. يتحدث الموزعي كشاهد عيان آنذاك، عن الاهتمام الكبير لحسين بك بإنشاء البساتين وزرعها بالأشجار المثمرة وإجراء الماء إليها، ومن أبرز الأمثلة على ذلك بستان قصر محارث الشجر "ولما أصلح البستان وهيأه للغرس أمر البخشجية بأن يأتوه بالأشجار المثمرة حاملةً ثمارها، والغراس المزهرة مطلعة أزهارها، فاقتلعوها مع ترابها وغرست في البستان المذكور بعد صلاة العصر وهو مشرف عليهم من كشك ذلك القصر، ثم أجريت تحتها الأنهار، فأصبحت أنها جنة عدن أشجارها عالية وقطوفها دانية". انظر: الموزعي، د.ت، ص68_71.

59: **سنان باشا الكيخيا :** كان كتخذا (نائب، معاون)للوالي حسن باشا، ثم تولى بكلربكية اليمن خلفاً لحسن باشا سنة 1013هـ/1604م، عرف عنه الصرامة والحزم ما مكنه من ضبط أوضاع اليمن والقضاء على عدد من التمردات القبلية في عهد حسن باشا، وقد ظل في الحكم حتى سنة 1016هـ/1608م، له العديد من المآثر العمرانية في اليمن عموما وفي تعز خصوصاً، أبرزها(في تعز) قبة الشيخ الصوفي عبد الهادي السودي، وقبة الحسينية التي بناها بأمر حسن باشا ونقل إليها جثة ابنه الأمير حسين بك بعد وفاته. للمزيد انظر: أحمد صالح المصري، "المآثر العمرانية العثمانية في تعز، دراسة تاريخية لما ورد في كتاب الإحسان للمؤرخ شمس الدين عبد الصمد الموزعي"، ضمن كتاب: تعز(عاصمة اليمن الثقافية) على مر العصور...، 2009م، ج34، ص782، 783.

60. **حسن باشا:** هو من أبرز الولاة العثمانيين الذين كان لديهم بصمات واضحة على صعيد استعادة السيطرة العثمانية على أغلب أجزاء اليمن بعد أن كادت تخرج من سيطرتها، عينه السلطان العثماني مراد الثالث على ولاية اليمن سنة 988هـ/1580م واستمر في الحكم مدة طويلة حيث عزل من منصبه سنة 1013هـ/1604م، وقد توفي سنة 1016هـ/1608م، وخلال مدة حكمه تمكن من إخماد ثورة الإمام الحسن بن علي المؤيدي-الذي كان قد ظهر إبان حكم مراد باشا- وأرسله مع ابناء المطهر بن شرف الدين إلى استانبول سنة 944هـ/1585م، كما ظهر في عهده الإمام القاسم بن محمد سنة 1006هـ/1598م الذي ثار على العثمانيين تكللت بإخراجهم من اليمن بعد ذلك سنة 1635م. انظر: المحبي، د.ت، ج2، ص74، وللمزيد من المعلومات انظر: سالم، 1999م، ص331_371.

61. **عبد الهادي السودي:** أبو عبد الله محمد بن علي بن أحمد السودي، كان يدعى باسم الهادي إلى الله أو عبد الهادي لكن هذا الاسم الأخير هو الذي اشتهر به بين الناس، ولد حوالي سنة 860ه/1455م في صنعاء على الأرجح وليس في تهامة، توجه إلى مكة لمواصلة تعلمه الذي بدأه في اليمن وهناك كانت بداية رحلته مع التصوف، ثم عاد إلى تعز وأسس زاويته ومسجده، اشتهر بعشقه للقهوة وحبه للشعر، فقد كان شاعراً صوفياً عاشقاً للقهوة، توفي سنة 932هـ/1525م. للاطلاع على تفاصيل نشأته وحياته وأعمالها انظر: الكسندر كنيش، "حكاية شاعرين...التصوف في اليمن خلال العهد العثماني"، ترجمة عبد السلام الربيدي، مجلة الإكليل، العدد40، يناير-يونيو 2012م، ص83-106.

62. الموزعي، د.ت، ص94، 95.

63. المجاهد، 2007م، ص132، 133..

64. الموزعي، د.ت، ص70.

65. لا يزال جامع المظفر قائماً حتى الآن في مدينة تعز، وقد سمي بذلك الاسم نسبة إلى مؤسسه المظفر بن يوسف الرسولي في القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي. انظر: المجاهد، 2007م، ص102، 103. تجدر الإشارة إلى أن الموزعي لم يشر إلى جبل صبر في الإجراء الأول، لكن قرب المنطقة التي تم فيها إصلاح السائلة من جبل صبر يرجح لدينا استقبالها لسيول الأمطار النازلة من الجبل إلى المدينة.

66. تقام تقنية الجدران الساندة على الضفاف في بعض المواقع التي تتسم بتربة هشة وذات قابلية عالية للتقويض والانجراف، وتكون قريبة من سور المدينة أو مساكن ومنشآت عامة إذا كان المجرى المائي أو الوادي يعبر داخل المدينة، أما تقنية الجسور المحمولة على العقود الحجرية، فهي منشآت معلقة فوق مجاري المياه أو الوديان تبنى من الأحجار المدعمة بمادة الجير المخلوط برمل أحجار الكوارتز. انظر:

المقطري؛ العشاوي،"البعد التاريخي لمخاطر الفيضانات والتهيئة المائية لمدينة تعز..."، كتاب: تعز(عاصمة اليمن الثقافية) على مر العصور...،2009م، ج4، ص1414، 1415.

67. هناك اختلاف بين المؤرخين حول مكان وجود أهل لكهف الذي لم يحدده القرآن قطعاً، ورغم ذكر الهمداني وابن المجاور أن مكان أهل الكهف هو في جبل صبر وتحديداً عند المسجد الذي يسمى باسمهم حالياً أعلى منتزه زايد بن سلطان، فإن مؤرخين آخرين يعتبرون ذلك من الأساطير ويرجحون وجود المكان في الأردن. للمزيد حول هذا الموضوع انظر: المخلافي، 1984م، ص32، 33.

68. تنتمي تقنية الرصف بالأحجار إلى تقنيات التهيئة المائية لأغراض تصريف المياه والوقاية من الفيضانات؛ كونها تسمح بنفاذ المياه بصورة يسيرة من بين الشقوق أو فواصل صفوف الأحجار التي تملئ بتربة رملية سلتية، فضلاً عن تجهيز تلك المدرجات بمصارف للمياه على جوانبها تؤدي غالباً إلى البساتين أو إلى مصارف رئيسة أخرى خارج أسوار المدينة. انظر: المقطري؛ العشاوي، "البعد التاريخي لمخاطر الفيضانات والتهيئة المائية لمدينة تعز..."، كتاب: تعز(عاصمة اليمن الثقافية)على مر العصور...، 2009م، ج4، ص1413.

69. **جعفر باشا:** تولى حكم اليمن بين عامي 1016_1022هـ/1608_1613م، وخلال تلك المدة استخدم الحرب تارة والدبلوماسية تارة أخرى في مواجهة الاضطرابات من قبل بعض الأمراء العثمانيين خاصة في صعدة ومن قبل الإمام القاسم بن محمد الطامح لحكم اليمن. انظر: سالم 1999م، ص380_381م.

70.الساقية: مفرد جمعها سواقي، وهي عبارة عن إحدى التقنيات التقليدية لتهيئة المياه، وتنتمي إلى نظام توصيل ونثر المياه المكمل لنظم حصاد المياه وتهيئة مساقطها، حيث تعمل على نقل المياه من المصدر خاصةً حينما يكون بعيداً إلى مناطق الاستخدام أو التخزين، التي قد تكون أراضي زراعية أو حدائق أو بساتين، أو منشآت تخزين بالقرب من المباني الحكومية أو التجمعات السكانية أو المساجد والمرافق العامة، ويتم بناؤها فوق سطح التربة، بخلاف القنوات التي تكون محفورة تحت سطح التربة بشكل كلي أو جزئي، وكلاهما يتم بناؤهما بالأحجار السائبة دون استخدام أي مادة لمنع التسرب، كما تبنى أحياناً بالأحجار المدعمة بمادة الجير المخلوطة برمل أحجار الكوارتز، وقد ساهمت هذه التقنية في عمليات التهيئة المائية الموجهة للحد من الجفاف، عندما تنقطع الأمطار وتكون هناك مصادر مائية في مناطق بعيدة عن مناطق الاحتياج، إذ يصبح وجود المصدر المائي كعدمه في حال غياب مثل هذه التقنية. انظر: المقطري؛ العشاوي، "البعد التاريخي لمخاطر الفيضانات والتهيئة المائية لمدينة تعز..."، كتاب: تعز(عاصمة اليمن الثقافية)على مر العصور...، 2009م، ج4، ص1411، 1412. وللمزيد انظر: خليل قاسم محمد المقطري، النظم والتقنيات التقليدية لتدبير وتهيئة أراضي الأحواض الهيدروغرافية في المناطق الجافة وشبه الجافة، حالة عالية حوض وادي أريري-تازناخت/ورزازات، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سايس-فاس، 2006م، ص171-178.

71. الموزعي، د.ت، ص136، 137. نود التنويه هنا إلى الخطأ الذي وقع فيه محقق كتاب الإحسان الحبشي، حينما ذهب في تفسيره للنص السابق إلى أن الأمير محمد بن سنان باشا أجرى الساقية من جبل صبر إلى(قصر) أو منزل الموزعي مؤلف كتاب الإحسان. انظر: مقدمة المحقق، ص10، وقارن مع النص السابق في الصفحات المشار إليها سابقاً.

72. الموزعي، د.ت، ص137.

73. المصدر نفسه والصفحة.

74. بيت القصار توجد حالياً في حارة المتوكل، والشيخ القصار هو جد بيت عبد الإله أصهار وجيران بيت الجيشي في تعز القديمة الآن، وتعد أسرة القصار من أعرق الأسر في مدينة تعز، ويقال إن بيتهم القائم حتى اليوم من أقدم بيوت المدينة. انظر: المجاهد، 2007م، ص104.

75. الموزعي، د.ت، ص138، 139. من بين تلك الأملاك الأراضي المغروسة في المشيرب في عزلة حدنان من جبل صبر، والأراضي التي يملكها الأمير محمد في الضباب وفي لصب برداد من أعمال جبل صبر، والبستان في المجلية. انظر: الموزعي، د.ت، ص138، 139.

76. تقع الحجرية على بعد حوالي 20 كم غرب تعز. للمزيد عن الشيخ علي الشرجبي وحروبه التي خاضها ضد العثمانيين انظر: عبد الحكيم الهجري، "التمردات القبلية خلال الحكم العثماني الأول لليمن، تمرد الشيخ علي الشرجبي بمنطقة الحجرية في تعز عام

1006هـ/1597م وفي الأعوام(1027-1030هـ/1618-1621م)، كتاب: تعز(عاصمة اليمن الثقافية)على مر العصور، مؤتمر دولي خلال يومي 25_27مايو 2009م، ج2، مؤسسة السعيد للعلوم والثقافة، تعز، ص709-722.

77. كان جمع الشيخ أو الولي الصوفي أحمد بن علوان يحتفل به غالباً في شهر أيلول من كل عام ولعدة أيام متتالية، بخلاف ما هو سائد مع غيره من الأولياء الذين يتم الجمع عندهم ليوم واحد فقط وتكون على الغالب إما في 12 ربيع الأول أو 27 رجب أو 15 شعبان. انظر: المجاهد، 2007م، ص106.

78. الموزعي، د.ت، ص85. نود التنويه هنا إلى الخطأ الذي وقع فيه الباحث الهجري حينما ذهب إلى القول بتمكن علي الشرجبي من إحكام قبضته على قلعة القاهرة الحصينة والاستيلاء على محتوياتها وعتادها العسكري، بخلاف مدلول النص المصدري الذي أورده الموزعي عن هذه الحادثة. انظر: الهجري، "التمردات القبلية خلال الحكم العثماني الأول لليمن..."، كتاب: تعز(عاصمة اليمن الثقافية)على مر العصور...، 2009م، 24، ص710، 711، ثم قارن مع الموزعي في الصفحة المذكورة سابقاً.

79. الموزعي، د.ت، ص85، 86.

80. الموزعي، د.ت، ص86-88.

81. الموزعي، د.ت، ص85. تجدر الإشارة إلى نشوب حرب مياه جديدة في القرن الحادي والعشرين بين منطقتي قراضة والمرزح من منطقة الموادم، استخدمت فيها أسلحة نارية بما فيها الثقيلة، ورغم المحاولات الرسمية لإيقافها إلا أنها تندلع بين حين وآخر بغية السيطرة على اكبر قدر ممكن من مياه العيون والينابيع في منطقة الموادم.